حماسة المراهقين والضعفاء للجهاد ومَوقف الرسول منهم

بقلم الدكتور
السيد أحمد إبراهيم حمور
أستاذ التاريخ والحضارة المساعد
بجامعة الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

المقـــدمة

الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد النبى وآله الطاهرين وصحابته أجمعين وسلم . وبعد : فإن الجهاد « القتال » فى سبيل الله كان ممنوعا منه النبي عليه الصلاة والسلام والمسلمون طوال العهد المكى[1] . نظراً لقلتهم، ووفرة المشركين .

لكن عقب الهجرة ورفع نسبة عدد المسلمين بدخول الناس فى دين الله أفواجا أذن الله لهم فيه ، ولم يفرضه عليهم ، ثم أمرهم به فيما بعد .

فحمل ذلك الأمر الرسول صلوات الله وسلامه عليه والمسلمين أن يشمروا على الفور عن سواعدهم لمنازلة المشركين ومن على شاكلتهم - فى شبه الجزيرة العربية وخارجها - بعد دعوتهم للإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة ، ومجادلتهم بالتى هى أحسن[2] . وقد أنجزوا ذلك طوال العهد المدنى[3] مدافعين بالحق عن الحق تارة ، ومهاجمين غير معتدين تارة أخرى ، فى أكثر من غزوة وسرية .

---

(١) العهد المكى : مدته نحو ثلاثة عشر عاما ، بين بداية نزول الوحى لأول مرة بحراء ، والهجرة النبوية للمدينة - أى من سنة ١ بعثة أو نبوة ، إلى سنة ١٣ منها / سنة ٦٠٩ م إلى سنة ٦٢٢ م .

(٢) ينظر هداية الحيارى فى أجوبة اليهود والنصارى ، لابن قيم الجوزية ص ٢٨٢ مطبعة البيان التجارية . دبى .

(٣) العهد المدنى : مدته نحو عشر سنين ، بين الهجرة للمدينة والوفاة النبوية - أى من سنة ١ هـ إلى سنة ١١ هـ / سنة ٦٢٢ م إلى سنة ٦٣٢ م .

والأهم من ذلك أنه ﷺ كان جد حريص على انتقاء عناصر الجيش الإسلامى ـ جند الله ـ لمجاهدة أولئك الخصوم ، وتكوينها ممن تتوافر فيهم مسوغات اللياقة[1] ـ أو على الأقل معظمها ـ للجهاد ، فمن اكتملت فيه أجيز ، أما مفتقدها كلها أو جلها فلا يجاز .

ونرى أن صنيع الرسول عليه الصلاة والسلام فى هذا المجال العسكرى جميل دقيق ، فالمسلم ـ صحيح الإسلام ، صادق الإيمان ـ المجاز لأنه لائق من كافة الوجوه ، تطمئن له النفوس فى مقاومة العدو أو مهاجمته ، أما الآخر فالشكوك تثار من حوله ، والخوف عليه من كيد الخصوم يراود النفوس . وفى كلا الحالين قد استخدم ﷺ حقه ـ بوصفه الرئيس الأعلى للدين والدنيا ـ مع الفريقين تطبيقاً لنظم الجندية وقوانين الحرب والجهاد فى عصره ، ولا يخفى ما فى ذلك التنسيق العادل الراقى من تقييم لظروفهما ، وبخاصة أولئك الضعفاء ـ سناً ، أو جسما وطاقة[2] .

وقد كان الرسول عليه الصلاة والسلام دقيقاً فى تنفيذ تلك القوانين والنظم مع الغلمان الذين هم فى دور المراهقة المبكرة[3] ، ومع الضعفاء ،

---

(١) ورد تفصيلها بإسهاب فى بحث آخر بعنوان « القرعة لاختيار المجاهدين فى عصر الرسول » . ومن بينها على سبيل المثال لا الحصر فى المجاهد من أجل إعلاء كلمة الله . (بلوغ سن الخامسة عشرة ، وسلامة العقل والبدن وسائر الحواس ، والطاقة على القتال ...) .

(٢) فلا يجاز صغير السن عن الخامسة عشرة ، أو الطاعن فيه ، ومن رقت عظامه لهرمه وضعفه والأعمى والأعرج والمريض وما أشبههم ... (ينظر سيرة الأمين المأمون « السيرة الحلبية » لابن برهان الحلبي جـ ٢ ص ١٥٦ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٥٥ ط ٣ بالمطبعة الأزهرية بمصر سنة ١٣٥١ هـ / سنة ١٩٣٢ م) .

(٣) المراهق : الغلام الذى قارب الحلم ، ولم يحتلم بعد ، وذلك ابن العشر =

لأن النوعين افتقدا اللياقة والطاقة ، فأصبحا من ذوى الرخصة(١) الشرعية فى عدم مزاولة الجهاد إلى أن تكتمل فيهما شروطه .

وإعفاؤه عليه الصلاة والسلام - إشفاقا منه - جماعة الغلمان المراهقين الذين هم دون الخامسة عشرة ، تقدير عام لأحوالهم ، وحقن لدمائهم ، وادخار لتلك الثروة البشرية - من حديثى السن ، وفلذات الأكباد ، وحشاشات الأفئدة - للإفادة من جهادها ونضالها مستقبلا فى يوم كريهة وسداد ثغر ، إذ أنهم حاليا ليس لديهم العمر المناسب الذى يؤهلهم للقاء العدو ، والنفس الطويل للاستمرار فى مقاومته والصمود فى مهاجمته ، والصبر الجميل - بلا جزع ولا شكوى - على مخادعته وكيده ومكره ، والطاقة الخلاقة على خوض أعنف المعارك فى سبيل الله ، والعقل المفكر والرأس المدبر فى إطاقة تقدم الخصم والنيل منه وقصم نابه وظهره ، والساعد القوى القادر على حمل السلاح فترة قد تقصر وقد تطول ، وفى أمكنة مختلفة قد تقترب من المدينة المنورة - حاضرة الخلافة ، وعاصمة الدولة العربية الإسلامية - وقد تنأى عنها ، وفى زمن قد يختلف فيه الطقس والمناخ عن المعدل الطبيعى المألوف فى المدينة وما إليها .

= سنين إلى إحدى عشرة . والحالم : كل من بلغ الحلم . وجرى عليه حكم الرجال، احتلم أو لم يحتلم (ينظر لسان العرب لجمال الدين أبى الفضل بن منظور جـ ٢ ص ٩٨٠ ، جـ ٣ ص ١٧٥٥ ، ١٧٥٦ طبع دار المعارف بمصر ، والمصباح المنير لأبى العباس الفيومى المقرىء جـ ١ ص ١١١) .

(١) المنصوص عليها فى قوله تعالى : (ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج ...) وفى قوله سبحانه : (ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ...) (ينظر سورة التوبة آية : ٩١ ، وسورة النور آية : ٦١ ، وسورة الفتح آية : ١٧) .

وكلها أعباء جسام إن تحملها المجاهد المسلم البالغ المطيق مع شدة التألم منها لتعرسه عليها ، فلن يطيقها بيقين أولئك الغلمان المراهقون الذين لم يبلغوا بعد ، ولم تتحقق فيهم الطاقة بمعناها ، ولم يصبروا على تحمل تلك الأثقال بأية حال بعض الوقت من أيام أو ليال حين يصادمون غير المسلمين فى غزوة أو سرية .

ثم إن المجاهد المؤمن القوى فى إيمانه وعقله وفؤاده ورأيه وتفكيره وتدبيره وبيانه وسنانه ، على حد تعبير الرسول ﷺ بقوله : « المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفى كل خير ، احرص على ما ينفعك ، واستعن بالله ، ولا تعجز ... »[1] ـ ذلك المجاهد نفسه يمكنه بما وهب من حماس شديد للجهاد فى سبيل الله . وبما رزق من مهارة وخبرة فى فنون الحرب وأساليب القتال أن يواجه بأرض المعارك فرداً فأكثر من جنود العدو ، وينتصر عليهم بعون الله ، ويغنم من ورائهم ، أو يستشهد دون ذلك طمعا فى الجنة ، ولا يتسنى هذا لأحد أولئك الغلمان المراهقين أو الضعفاء .

والنبى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وقد زوده ربه بالكثير من خفايا الأمور التى حجب غيره عنها ، ومن بينها أساليب القتال وفنون المقاومة والدفاع والهجوم إبان الحرب ، وعلمه منها ما لم يكن يعلم ـ كان يدرك ذلك كله فى أصحابه بلا استثناء ، كبيرهم وصغيرهم ، قويهم وضعيفهم ، ويعرفه فيهم معرفة الأب بأبنائه ، والقائد الفذ بجنده ، فأجاز للجهاد كل من يليق له

---

(١) ينظر رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين . لأبى زكريا النووى ص ٦١ نشر دار الكتاب الإسلامى ببيروت ، ودليل الفالحين لطرق رياض الصالحين ، لمحمد بن علان الصديقى المكى جـ ١ ص ٣١٠ طبع دار الفكر ببيروت .

دون سواه ، حتى لا يترتب على إجازة من لا يليق كثرة المستشهدين الذين يمثل معظمهم يومئذ على الجبهة أولئك الغلمان والضعفاء ، فيصبح الخطب أفدح ، والقاصمة لا عاصمة منها بكسر قلوب المسلمين ، وإهاضة جناحهم وشماتة أعداء الله فيهم .

وقد آثرت التدوين فى النظم الحربية فى عصر الرسول عليه صلاة الله وسلامه ، تحت هذا العنوان :

« حماسة المراهقين والضعفاء للجهاد وموقف الرسول منهم »

ليدرك الجميع الآن ـ وبالأخص أرباب العسكرية والحرب والسياسة والإدارة ـ مبلغ ما كان يحظى به الغلمان والمراهقون ، ومثلهم ذوو الضعف فى حياة ذلك الرسول القائد من رغبة فى الجهاد قوية ـ مبعثها الشحنة الدينية المستقرة فى الأفئدة ، والغيرة العربية والإسلامية الكامنة فى النفوس ـ للجهاد فى سبيل الدعوة الإسلامية ، وإعلاء كلمة الله ، ونشر دينه الحنيف ، وكتابه المبين ، ولغة العرب تحت ظلال رايات وألوية رسوله محمد عليه الصلاة والسلام ، غير ناظرين إلى شىء يتعلقون به من عرض الدنيا الزائل ، وإنما أملا فى النصر ، وطمعا فى الاستشهاد . ولاريب أن حماستهم تلك فى صورتها المشرقة الوقور كانت موطن التنافس فى الخير بينهم حينئذ ، ولا يزال يشدو بالحديث عنها فم الزمان ، ويفخر بها أبناء الإسلام فى كل عصر ومصر ، ومحل تقدير المنصفين من جماهير العالم .

أيضاً . ليفهموا ملياً حجم المعايير العسكرية ونظم الحرب وسياسة القتال التى وضعها النبى ﷺ .

وكذلك ليتأكدوا عن اقتناع من أن الإسلام دين سلام ونظام ووئام ، فضلا عن كونه دين قوة فى الحق وبالحق ، دفاعاً وهجوما .

وقد انتظم البحث فصلين : تحت أولهما ثلاثة مباحث ، وتحت آخرهما مبحثان .

والله وحده أسأل العون والتوفيق والسداد فى تدوينه ، ولا أزعم سبق به ، فقد كتب فيه الغير من بين خيار المؤرخين ومن على شاكلتهم من ذوى الخبرة والمهارة والبصر بفنون وسياسة الحروب والعسكرية ونحوها . لكننى ربما أورد فيه - بفضل الله - شيئاً من الجديد اللائق ، والترتيب الشائق ، قدر استطاعتى ، وعلى الله قصد السبيل .

د . السيد أحمد إبراهيم حمور

الفصل الأول

مظاهر من تنافس الغلمان فى الخروج للجهاد

المبحث الأول

طموحات زيد بن ثابت ـ وأقرانه ـ فى الجندية الإسلامية :

برغم أن النبي ﷺ أفصح لأصحابه جهاراً نهاراً عن شروط اللياقة الواجب توافرها فيمن يجاز للجهاد فى سبيل الله ، وعدم الإجازة لفاقدها كلها أو معظمها ، وتركيزه باهتمام بالغ على تطبيق وتنفيذ ذلك المشروع العسكرى والنظام الحربى فى أثناء عملية الاختيار (القرعة) التى كانت تتم علنا بحضوره وعلى يديه فى المعسكرات حول المدينة المنورة ، قبيل أن يغادرها الجيش الإسلامى إلى وجهته فى غزوة أو سرية ، حتى أصبح ذلك النظام لدى الجميع حينئذ أمراً مصطلحاً عليه ولا محيد عنه ولا استثناء فيه .

برغم ذلك ، فإن جماعة من الغلمان[1] المراهقين ـ محيى الإسلام ، صادق[2] الإيمان ـ لم يثنهم القرار النبوى المتضمن ذلك النظام الدقيق بشأن اختيار المجاهد المسلم للقاء الخصوم عن عزمهم الأكيد ، وتصميمهم الشديد

---

(١) الغلمان : جمع غلام . قال الحافظ بن حجر : (يطلق على الشخص قبل البلوغ أنه طفل وغلام ...) (ينظر دليل الفالحين للسكى ج ٢ ص ١٤) .

(٢) وهم : عبدالله بن عمر ، وأسامة بن زيد ، والبراء بن عازب ، وأسيد بن ظهير ، وعرابة بن أوس ، وزيد بن أرقم ، وأبو سعيد الخدرى ، وعمرو بن حزم ، وسعد بن خيثمة ، ورافع بن خديج ، وسمرة بن جندب ، وزيد بن جارية الأنصارى ـ وهو غير زيد بن حارثة ـ وزيد بن ثابت .

على الإسهام بأنفسهم صراحة فى الجهاد الذى فرضه الله عزاً للإسلام[1] . وقد تكفل الله بنصر من نصره ، وإعزاز من أعزه[2] .

وسرعان ما غلبت عليهم حماستهم الشديدة ، والتنافس المذهل فجنبهم بقوة خارقة للعادة نحو الخروج ضمن جند[3] الله لقتال أعداء دينه ، بوحى من قوة إيمانهم بالله والرسول ، وحبهم إياهما ، وبدافع من أصالة عروبتهم وعراقة أرومتهم ، وغيرتهم الشديدة على الإسلام وعليهم ، وفخرهم بالصحبة النبوية وتصميمهم على الدفاع عن كل ذلك بالنفس والنفيس ، وبذل كل غال ورخيص ، يحدوهم - فى تلك المعانى والظواهر مجتمعة - طمعهم فى أن يجيزهم النبى عليه الصلاة والسلام للخروج مجاهدين ، فيفوزوا بإحدى الحسنيين - النصر مع الغنيمة . أو الاستشهاد مع الجنة - وربما مكن ذلك فى نفوسهم فزاد من ظاهرة الطمع لديهم أن الإسلام ودولته الحديثة حينئذ كانا فى الشهور الأولى من ورود الإذن فى القتال (الجهاد المشروع) بعد أن كان محرماً ، لذا فهما فى تلك الحال الراهنة فى أمس الحاجة إلى سواعد أولئك الغلمان المراهقين المعبرين بحماسهم المتدفق نحو الجهاد عن توقانهم له ، ولو تكون إجازتهم بطريق الاستثناء ، والتغاضى عن بعض مسوغات اللياقة والإجازة .

---

(١) ينظر نهج البلاغة للإمام على بن أبى طالب جـ ٢ ص ١٩٩ ، شرح الإمام محمد عبده . ط ٣ بالمطبعة العمومية بمصر سنة ١٣٢١ هـ .

(٢) ينظر المرجع السابق جـ ٢ ص ١٤٨ - ١٥٠ .

(٣) يقول الإمام على بن أبى طالب : (واعلم أن الرعية طبقات لا يصلح بعضها إلا ببعض . ولا غنى ببعضها عن بعض ، فمنها جنود الله ... وهم بإذن الله حصون الرعية ، وزين الولاة ، وعز الدين ، وسبل الأمن ، وليس تقوم الرعية إلا بهم ...) (ينظر المرجع السابق جـ ٢ ص ٩٢ ، ٩٣) .

كانت تلك الظواهر الروحية والعرقية والحماسية والعسكرية وما إليها فى حسبانهم مسوغة لأن يجيزهم الرسول صلى الله عليه وسلم مع وضوح ضعفهم سناً وطاقة .

لكنه ـ رفقاً بهم ، وطبقا لقراره الحكيم الذى صنعه فى هذا الشأن وطبقه بحذافيره ، وبرغم ما لمسه فيهم صراحة من ميزات إسلامية وعربية نحو الجهاد ، أبهرت العقول ، وأثلجت الصدور ، وبشرت بمستقبل باسم ومطمئن ـ لم يجزهم جميعا فى غزوة بدر الكبرى سنة ٢ هـ / ٦٢٤ م . ولم يجز[1] معظمهم فى غزوة أحد سنة ٣ هـ / ٦٢٥ م ، لعدم بلوغهم الخامسة عشرة ، ولعدم استكمالهم الطاقة على القتال ، ولأن المستقبل إن شاء الله أمامهم ينتظرهم جميعا حينما تتوافر فيهم شروط اللياقة والإجازة .

يقول الإخباريون : (لم يرهم الرسول عليه الصلاة والسلام بلغوا خمس عشرة سنة ـ بل أربع عشرة ـ وعلى سبيل المثال رد عبد الله بن عمر فى بدر وعمره ثلاثة عشر عاماً ، ورده ـ أيضاً ـ فى أحد وعمره أربع عشرة سنة ، واستصغر فيها عرابة بن أوس الذى كانت سنه أربع عشرة سنة وخمسة أشهر فرده ، وأبى أن يجيزه) .

وزيد بن ثابت ـ هو الآخر ـ كان قد بلغ من العمر إحدى عشر سنة إبان قدوم النبى ﷺ المدينة مهاجراً ، ومنذ صغره عرف بالجهاد فى سبيل الله ، لذا ما أن جاءت غزوة بدر الكبرى سنة ٢ هـ / ٦٢٤ م . حتى اجتهد كثيرا ـ

---

(١) الذين منعوا من بدر منعوا أيضاً من أحد ، إلا رافع بن خديج ، وسمرة ابن جندب ، فقد أجازهما الرسول عليه الصلاة والسلام فيها لأمور سوف ترد فى متن هذا البحث .

على تعبير بعض المؤرخين ـ ليسهم فى الغزو مع جند الله فيها تحت قيادة النبى عليه الصلاة والسلام ، والاستظلال بظل لوائه المرفرف الوارف .

كان هذا تصميم زيد بن ثابت يومئذ ، لكن الرسول القائد استصغره فيها إذ لم يتجاوز الثالثة عشرة فلم يجزه ، وكان المظنون أن يطرح زيد هذا الأمر جانبا إلى أن يبلغ الخامسة عشرة ، إلا أن تحمسه المكثف للجهاد ـ والذى ينمو ويتزايد باضطراد فى نفسه وجسمه ـ والنابع من تعمقه فى الدين وتوقانه الشديد للإسهام فى الجهاد من أجل النصر أو الشهادة ، دفعه مرة أخرى نحو الظاهرة نفسها بعد ذلك بعام واحد فى غزوة أحد سنة ٣ هـ / ٦٢٥ م ، فوقف منه الرسول القائد نفس الموقف السابق فى بدر ، ليس معه وحده ، بل ومع من هم على شاكلته ، إذ لم يبلغوا جميعهم يومئذ الخامسة عشرة[1] .

وإذا كان النبى عليه صلاة الله وسلامه قد رد أولئك الغلمان كزيد بن ثابت ومن على شاكلته فى غزوتى بدر وأحد ، لحداثة سنهم ، وضعف طاقاتهم على الجهاد ـ وقيل : إن بعضهم لم يجز فى بدر ، ثم أجيز[2] فى أحد ـ فإنه عليه الصلاة والسلام قد أجازهم للجهاد جميعا فى غزوة الخندق[3] سنة ٥ هـ / ٦٢٧ م ، لبلوغهم السن القانونية ـ الخامسة عشرة فما فوقها ـ والتحقيق ظاهرة الطاقة والقدرة على القتال صراحة لديهم .

---

(١) ينظر الطبقات الكبرى لمحمد بن سعد جـ ٢ ص ٦ طبع دار التحرير للطبع والنشر بالقاهرة .

(٢) مثل : رافع بن خديج ، وسمرة بن جندب .

(٣) ينظر دليل الفالحين ، للسكى جـ ١ ص ٧١ ، والسيرة لابن هشام جـ ٣ ص ٨ طبع دار التوفيقية بالحسين بالقاهرة سنة ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م ، والطبقات الكبرى لابن سعد جـ ٤ ص ٨٢ ـ ٨٤ ، وتاريخ الأمم والملوك لمحمد بن جرير =

ومن خلال مواقفه من أولئك الغلمان المراهقين دون البلوغ حول إسهامهم في الجهاد ، نلاحظ بوضوح ظاهرة ثباته على المبدأ ، ومنتهى دقته في تطبيقها وتنفيذها مع زيد بن ثابت ورفاقه ممن لم يبلغوا - إبان غزوتي بدر وأحد - سن الخامسة عشرة، وذلك دون تفرقة بينهم ، برغم أنه عليه الصلاة والسلام كان قد غمره السرور ساعتئذ من كثرتهم في تلك الظاهرة الروحية والعسكرية المفاجئة ، وشدة تنافسهم حول الجهاد ، لكن عدم إجازتهم مؤقتا وهم على تلك الحال ، أليق بهم شرعاً وواقعا .

ولاريب أن الرسول القائد الميداني . والحاكم الديني والدنيوي[1] ، والمعلم المرشد ، كان في مثل هذه القضايا الشائكة خير مشرع وقاض ومنفذ ، فوق أنه كان مهتماً جداً بشئون الجهاد (القتال) وذا بصر ودراية بنوعية العنصر البشري الذي يطيقه من أبناء الإسلام .

= الطبري جـ ٢ ص ٤٤٧ طبع دار الفكر بالقاهرة سنة ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م ، والدرر في اختصار المغازي والسير لابن عبد البر ص ١٥٥ . (متناً وهامشا) طبع مؤسسة دار التحرير بالقاهرة سنة ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٦ م ، والكامل لابن الأثير جـ ٢ ص ٥٦ ، ٦٢ ط ١ بالمطبعة الأزهرية بالقاهرة سنة ١٣٠١ هـ / ١٨٨٣ م ، والبداية والنهاية للحافظ بن كثير جـ ٤ ص ١٥٠ ، مطبعة السعادة بمصر ، وزاد المعاد في هدى خير العباد لابن قيم الجوزية جـ ٣ ص ١٩٥ طبع مؤسسة الرسالة ببيروت سنة ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م ،وعيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير « السيرة النبوية » لابن سيد الناس جـ ١ ص ٤١٠ - ٤١١ طبع دار الحضارة ببيروت سنة ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م ، وسيرة الأمين المأمون (السيرة الحلبية) لابن برهان الحلبي جـ ٢ ص ٢٣٢ - ٢٣٣ .

(١) ينظر إمبراطورية العرب لجون باجوت جلوب ص ٦٩١ طبع بيروت سنة ١٩٦٦ م .

المبحث الثانى

حيلة الغلام (عمير بن أبى وقاص) البارعة للإسهام فى (غزوة بدر)

رجاء الشهادة :

فى إبان التهيؤ والتأهب لغزوة بدر الكبرى سنة ٢ هـ / ٦٢٤ م ، بدت ظاهرة حماسية غريبة ، بارزة القسمات ، أفصحت عن التبشير بالخير لمستقبل الجندية العربية الإسلامية فى عصر النبوة ، كان بطلها ـ أحد الغلمان الغير على إسلامهم وعروبتهم ، والمصرين على اقتفاء آثار رسولهم ﷺ فى الجهاد رغبة فى الاستشهاد .

ذلكم هو عمير بن أبى وقاص ، الذى كان يومئذ فى السادسة عشرة من سنى عمره ، وقد أدركه الخوف الشديد ألا يجيزه النبى عليه الصلاة والسلام للجهاد فى تلك الغزوة بحالته الراهنة ، لذا سرعان ما دارت بخلده حيلة الاستتار والمواراة عن العيون ما أمكن ، فدس[1] نفسه بين صفوف جند بدر ـ رغم أنه ليس ممن تنطبق عليهم يومئذ شروط اللياقة للجهاد ـ تحسبا منه ألا تدركه الأبصار ، لكن بطل ظنه ، وانكشفت حيلته على يد أخيه ـ الشقيق ـ سعد بن أبى وقاص ، الذى كان ساعتئذ واحداً برأسه بارزاً بين أفراد وجماعات ذلك الجيش البدرى الباسل ، فقد خف إلى أخيه عمير فى دهشة مستفسراً منه عن ذلك الصنيع الغريب المريب ـ وسعد يعلم ملياً جميع متطلبات اللياقة للخروج من أجل الجهاد ـ فأجابه عمير فى حماسة وجرءة مفعمة بالحذر من موقف الرسول القائد فى اقتراع المجاهد بدقة ، وبالحب الشديد

---

(١) دس : أخفى . أى أخفى نفسه مع المجاهدين ، وليس هو منهم (ينظر لسان العرب لابن منظور جـ ٢ ص ١٣٧٣ ، والقاموس المحيط للفيروز آبادى جـ ٢ ص ٢١٣ طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة سنة ١٩٧٧ م) .

الجهاد رغبة فى الاستشهاد ، قائلا : (إنى أخاف أن يرانى رسول الله ﷺ ، فيستصغرنى فيردنى ، وأنا أحب الخروج ، لعل الله يرزقنى الشهادة[1]) .

وطبقا لمسوغات اللياقة فيمن يصيبه الدور للخروج مجاهداً فى سبيل الله - والتى تبادر إلى ذهن النبى عليه الصلاة السلام أن عميراً فقد شيئاً منها ، فلم يبلغ مبلغ الشباب والرجال ذوى القدرة المعتبرة على القتال .

وفضلا عن أن هذه الظاهرة العابرة التى أبداها عمير لم تبد سالفا - لا منه ولا من غيره - فهى الأولى من نوعها فى بداية التأهب لتلك الغزوة الكبرى ، فإن الرسول رغب عنه ، فلم يجزه . فسرعان ما ارتعدت فرائص عمير وتغيرت أحواله بين يديه ﷺ ، وأمام جماهير الجيش فى أثناء عملية القرعة ، وعلى الفور لم يتمالك عبراته التى انهمرت من عينيه على وجنتيه ، فحملت تلك الظاهرة المأسوية الطارئة رسول الله ﷺ على أن يغير رأيه فيه عن ذى قبل ، وقدر فيه رغبته الكريمة فى الجهاد فى سبيل الله ، وأجازه دون تردد أو توان .

وما أن أيقن عمير من صدور ذلك القرار النبوى المعبر عن إشباع رغبته فيما يرغب فيه حتى غشيه السرور ، وغمره الفرح والمرح والحبور فجأة ، وساعتئذ شرع يستعد للانخراط فى سلك جيش بدر . يقول أخوه سعد : (فكنت أعقد له حمائل سيفه من صغره) وعلى الفور أسهم بسلاحه فى مصادمة المشركين ، وجد جده ، حتى استشهد يومئذ ، وعمره ست عشرة سنة[2] . وذلك على يد عمرو بن عبد ود .

---

(١) ينظر الطبقات الكبرى لابن سعد جـ ٣ ص ١٠٦ ، وتاريخ الأمم والملوك للطبرى جـ ٢ ص ٤٤٧ .

(٢) ينظر الطبقات الكبرى لابن سعد جـ ٣ ص ١٠٦ ، والسيرة النبوية =

ونرى أن النبي عليه الصلاة والسلام ـ صاحب الثبات على المبدأ ، وصانع ذلك القرار الحكيم بشأن اللياقة للخروج من أجل الجهاد ـ لم يستثن عميراً من مسوغات اللياقة نظراً لظاهرتى المداراة البارعة ، والبكاء الحار المؤلم المؤثر ، أو مجاملة لأخيه سعد بن أبي وقاص ، أو للقرابة القريبة[1] منه عليه الصلاة والسلام ، وإنما أجازه لما لمسه فيه أخيراً من حماس نادر مكثف للجهاد ، ومن تركيز شديد وحرص بالغ على الفوز بالاستشهاد ، ولا يقع مثل ذلك كله إلا ممن وثق من نفسه القدرة على القتال ، ووطنها على النضال ، لا سيما وأنه كان يومئذ قد تجاوز الخامسة عشرة ـ المشروطة فى اقتراع المجاهد ، إلى

= لابن هشام جـ ٢ ص ٢٦٢ ، وتاريخ الرسل والملوك للطبرى جـ ٢ ص ٤٤٧ ، والسيرة الحلبية لابن برهان الحلبي جـ ٢ ص ١٥٦ ، والسيرة النبوية والآثار المحمدية ، لزينى دحلان جـ ١ ص ١٥٧ ط ٣ بالمطبعة الأزهرية بمصر . سنة ١٣٥١ هـ / ١٩٣٢ م .

(١) كان سعد بن أبي وقاص من بين السابقين دخولا فى الإسلام ، وأحد العشرة المبشرين بالجنة وهم : (أبو بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، وعلى بن أبي طالب ، والزبير العوام ، وطلحة بن عبيد الله ، وعبد الرحمن بن عوف ، وأبو عبيدة بن الجراح ، وسعد بن أبي وقاص ، وسعيد بن زيد) . وأحد الستة أهل الشورى فى اختيار عثمان بن عفان للخلافة . وهم : (عثمان ، وعلى ، وطلحة ، والزبير ، وعبد الرحمن ، وسعد) . كما كان هو وأخوه الشقيق عمير من بين أخوال النبي عليه الصلاة والسلام الذى قال ذات مرة مفتخراً : (هذا سعد خالى ، فليرنى امرؤ خاله) فقد كان سعد وعمير من بنى زهرة الذين منهم السيدة آمنة بنت وهب والدة الرسول عليه الصلاة والسلام (ينظر الطبقات الكبرى . لابن سعد جـ ٣ ص ٩٧ ، ١٠٦ ، والبداية والنهاية لابن كثير جـ ٨ ص ٧٥ ، والسيرة النبوية ، لزينى دحلان جـ ٢ ص ٤١) .

جانب الطاقة المعتبرة فيه ـ إلى السادسة عشرة ، وقيل : السابعة عشرة[1] .

أيضاً . نرى أن العاقل المنصف ـ وقد بهره ذلك الموقف الحماسي المشرق المشرف من عمير ـ ليس فى حاجة إلى التعرف على تأثير حجم الشحنة الدينية المكثفة ـ المتبلورة فى صحة الإسلام ، وصدق الإيمان ، وعمق الحب لله وللرسول ، والذب عن الحنيفية السمحاء وعشاقها ، والعروبة الأصيلة العريقة وقومها ، والوطن الأم الرءوم وأهله ـ ومبلغ فعالية الحماسة الشديدة ، والشجاعة المتدفقة علناً فى نفس ذلك المراهق المجاهد والتائق إلى الاستباق لفعل الخيرات ، وفى مقدمتها الجهاد ، والمصر على الاستشهاد فى يومه أو غده ، بساحات النضال ، على رؤوس الأشهاد[2] .

ونرجح أن النبي ﷺ قد أجازه ـ أخيراً ـ للأمور التالية :

أولا : لأن هذه الظاهرة فردية ، فلم يبلغ ـ سنه ، ولا طاقته على القتال يومئذ أحد سواه من بين رفاقه ، ولم يدبر أحدهم مثل حيلة مداراته ، ولا بادرة بكائه ، وربما كانت ـ فضلا عن ذلك ـ ميولهم إلى النصر والغنيمة أكثر منها إلى الاستشهاد والجنة ، أو متساوية فيهما ، أما هو حسبما لوحظ صراحة من أحواله ساعتئذ ، فقد كانت نزعته إلى الاستشهاد ـ وبالطبع ما وراءه من الجنة ونعيمها .

ثانياً : ما أقدم عليه يومئذ بكل جرأة من حيلة عجيبة يؤمل معها التوصل

---

(١) ينظر البداية والنهاية ، لابن كثير جـ ٣ ص ٣٢٣ ، وعيون الأثر ، لابن سيد الناس جـ ١ ص ٢٩٤ .

(٢) ينظر أسد الغابة فى معرفة الصحابة ، لأبى الحسن بن الأثير الجزرى جـ ٢ ص ١٥ طبع دار الفكر ببيروت سنة ١٣٩٠ هـ / ١٩٧٠ م ، والسيرة النبوية ، لأبى الحسن الندوى ص ١٧٨ ، ١٨٠ ط ٣ بدار الشروق بجدة بالسعودية سنة ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م .

إلى ضالته المنشودة ، تبلورت فى مواراته عن العيون فى البداية ، ثم الإجهاش بالبكاء وانهمار الدمع الوفير حاراً ساخنا فى النهاية . هذا الإقدام بما انطوى عليه كان بادرة طيبة راقت أخيراً فى نظر الرسول ﷺ ـ كسوغ ثانوى وليس أصيلا ـ إلى جانب أنه فى سن السادسة عشرة ـ بداية المراهقة المتأخرة تقريباً[1] ـ ولديه قدرة ـ ولو إلى حد ما ـ على القتال ، فمنحه صلى الله عليه وسلم الإجازة .

ثالثاً : ما تركز فى طبعه ، وقر فى نفسه من تصميم على الاستشهاد ـ كما صرح هو نفسه بذلك ساعتئذ لأخيه سعد ، لاحظه الرسول فيه ، واستشعره منه حين بكى ، فعدل عن منعه إلى إجازته ، ولا ريب أنها لفتة كريمة منه عليه الصلاة والسلام .

المبحث الثالث

تحايل المراهقين (رافع بن خديج ، وسمرة بن جندب) على الخروج للجهاد فى غزوة أحد :

لما فرغ الرسول عليه الصلاة والسلام من صلاة المغرب بالشيخين[2] ، وشرع على الفور فى قرعة المجاهدين المسلمين مكتملى شروط اللياقة لإنجاز

---

(١) المراهقة نوعان : مبكرة ، وتبدأ من الثانية عشرة حتى الخامسة عشرة ، ومتأخرة ، وتبدأ من السادسة عشرة إلى العشرين . . (ينظر سيكلوجية الطفولة والمراهقة ص ٧١ للدكتور مصطفى فهمى . ط ٣ بدار مصر للطباعة بالقاهرة سنة ١٣٧٧ هـ / ١٩٥٧ م) .

(٢) شيخين : موضع بالمدينة ، عسكر فيه النبى عليه الصلاة والسلام ، ليلة خرج إلى غزوة أحد ، وبه عرض الناس (ينظر لسان العرب لابن منظور جـ ٤ ص ٢٣٧٤ ، والقاموس المحيط للفيروز أبادى جـ ١ ص ٢٦١) .

اللقاء بالمشركين خارج المدينة فى أحد سنة ٣ هـ / ٦٢٥ م . لما تم هذا وذاك جدت فجأة ظاهرة مدهشة فى صورة مسابقة نشطة ، وتنافس فى الخير بين اثنين من أولئك الغلمان المراهقين المسلمين الذين كرسوا جهودهم على الإسهام فى جهاد أعداء الله ورسوله ، طمعاً فى النصر أو الاستشهاد .

فقد عقد العزم رافع بن خديج وسمرة بن جندب ـ الغلامان المراهقان البالغان من العمر يومئذ خمسة عشر[1] عاماً ـ على الانخراط فى سلك جند الله بغزوة أحد ، مدفوعين لذلك الأمر العظيم بحماس دينى خالص وعسكرى ميدانى رائع ، ومنافسة شريفة فى عمل الخير وخير العمل ، وغيرة صارحة على الإسلام والعروبة ، وطموح لا حد له فى الجهاد ، رجاء أن يرزقهما الله النصر أو الشهادة .

كانت تلك رغبتهما الأكيدة التى طمعا فى تحقيقها يومئذ ، وبعرضهما على الرسول القائد ﷺ الاقتراع ألحا عليه فى ذلك رجاء أن يجيزهما ليسهما فى تلك الغزوة مع جند الله . وهنا كانت الدهشة مذهلة من جميل صنعهما الذى طمعا ملياً نتيجة له فى أن النبى يلبى رغبتهما بالإجازة ، لاسيما وأنه عليه الصلاة والسلام هو الذى حبب الجهاد فى سبيل الله ، وما يترتب عليه من نصر أو استشهاد إلى نفوس المسلمين .

كانت هذه نظرتهما بمنظار أبيض إلى تحقيق تلك الأمنية ، وأملهما فى الرسول أن يغض النظر ساعتئذ عما يراه ليس متوفراً فيهما بالمعيار المطلوب ، من مسوغات اللياقة للجهاد كحداثة السن أو التقليل من حجم الطاقة على القتال ، ولكن ذلك لم يتحقق لهما فى بداية الأمر يومئذ ـ شأن كثيرين غيرهما فى الغزوة نفسها لم يجزهم ﷺ فيها كبدر قبلها ـ وذلك رفقاً بهم ،

---

(١) ينظر الدرر لابن عبد البر ص ١٥٥ .

وتقديراً لظروفهم ، رغم بالغ سروره من حماسهم الرائع للجهاد فى سبيل الله.

فلما ردهما الرسول تألما ، إلا أنهما رغم الألم ، لم يدعا الفرصة الثمينة تفلت من أيديهما . فقد تقدم على الفور - نحو النبى عليه الصلاة والسلام - خديج والد رافع ، بوازع من دينه ووحى من توقانه للجهاد ، ودافع قوى من حنان الأبوة الرحيمة ، أملا فى تحقيق رغبة ابنه ، وفلذة كبده ، وشافعا له ، وعارضا هوايته الحربية الرائعة ، وحرفته الميدانية الأصيلة ، لعلها تجيز قبوله . تقدم فقال : (يا رسول الله . إن رافعاً ابنى رام[1]) .

يقول بعض المؤرخين - عارضاً ظاهرة أخرى لرافع الذى لجأ إليها خفية ساعتئذ لعلها مع حرفة الرمى تحملان النبى ﷺ على إجازته - يقول : (كان رافع يقوم على خفين له مرقعين ، يتطاول على أطراف أصابعه ، فكان أطولهم[2] فأجيز[3] .

فلما شاهد ذلك سمرة بن جندب - الذى كان النبى ﷺ ، قد رده منذ قليل لقلة استكمال اللياقة المعتبرة فيه - سرعان مامسه طائف الغيرة والتنافس الشديد فى الخير فتأثر بصنيع رافع والنتيجة المشرفة التى وصل إليها على يدى النبى ﷺ ، فانطلق على الفور فى ثورة المراهق المسلم الراغب فى الجهاد ،

---

(١) رام : أى يجيد الرمى بالنبل وما إليها ، وكان الرماة أهم عناصر المشاة فى الجيش الإسلامى (ينظر تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامى . د . أحمد مجاهد مصباح ص ١٠٩ ط ٢ بدار الطباعة المحمدية بالأزهر سنة ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م) .

(٢) ينظر تاريخ الأمم والملوك ، للطبرى جـ ٢ ص ٥٠٥ ، وعيون الأثر ، لابن سيد الناس جـ ١ ص ٤١٠ ، ٤١١ .

(٣) ينظر الدرر ، لابن عبد البر ص ١٥٥ .

نحو زوج أمه- مرى بن سنان[1] - فقال له: (يا أبت ، أجاز رسول الله ﷺ رافع بن خديج ، وردنى ، وأنا أصرع رافعا) .

ولا ريب أن والده تأثر ، فاصطحبه على وجه السرعة نحو الرسول ، وهناك قال : (يا رسول الله ، رددت ابنى ، وأجزت رافع بن خديج ، وابنى يصرعه ! !) .

وقيل : إن سمرة نفسه هو القائل للرسول : (لقد أجزت رافعاً وردتنى ، ولو صارعته لصرعته ، فأنا والله أصرع رافعاً) .

وسواء كان الشاكى للرسول هو الأب أم الابن ، فإن الشكوى هذه المدعومة بالقسم كانت رغبة فى أن يجاز سمرة كرافع فحسب ، لأن لدى الأول ما يؤهله لها كالآخر ، وهى لاشك جرءة بالحق ومن أجله ، وكانت من الابن أجل ، حيث صيرته محل تقدير أكثر لشهامته عند النبى عليه الصلاة والسلام ، الذى سرعان ماطلب إليه أن يصارع رافعا ، فانصاعا للأمر وزاولا نشاطهما فى رياضة المصارعة فى حضرته عليه الصلاة والسلام ، فصرع سمرة رافعا ، فأجازه الرسول للجهاد مثل رافع[2] .

وهكذا نجح تحايل الابنين المراهقين وأبويهما الرجلين ، فأجل به من احتيال طيب جاء مقدمة حسنة للحصول على رخصة الجهاد الخالص فى سبيل الله ، وبناء على هذه النتيجة السارة خرج رافع وسمرة ضمن جند الله

---

(١) كانت أم سمرة تحت مرى بن سنان بن ثعلبة - عم أبى سعيد الخدرى - (ينظر تاريخ الأمم والملوك للطبرى جـ ٢ ص ٥٠٥) .

(٢) ينظر الدرر ، لابن عبد البر ص ١٥٥ ، والكامل لابن الأثير جـ ٢ ص ٦٢ ، والبداية والنهاية لابن كثير جـ ٤ ص ١٥٠ ، وفقه السيرة النبوية . د . محمد السعيد رمضان ص ١٨٦ ط ٧ بدمشق سنة ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧ م .

فى غزوة أحد ، وقاتلا فيها ... حتى جرح رافع ...[1] أما سمرة فيبدو أنه لم يمسسه سوء[2] يومئذ .

ومن هذا الموقف العسكرى الممزوج بالجرءة والعطف الأبوى والاستباق إلى الجهاد يدرك المتعقل المنصف مبلغ تعلق المراهقين المسلمين وآبائهم بأهداب فضيلة الجهاد فى سبيل الله ، والتفانى فى الوصول إليها ، ومقدار تدقيق الرسول عليه الصلاة والسلام فى اقتراع عناصر الجيش الإسلامى مهما كانت الظروف ، فلا دخل فى ذلك لشفاعة والد - ومن على شاكلته - إنها حقاً المبادىء المحمدية السامية فى جميع المجالات ، يفقهها العالمون .

أيضاً . يدرك دور الحرفة[3] الرياضية، والخبرة المكتسبة والمهارة فيها، وقيمة رفعها من شأن صاحبها ، واعتزازه بها كمسلم مجاهد محترف ، ومحل تقدير وتوقير من سادته وقادته .

ثم إلى أى مدى نجح الاحتيال[4] الشريف المؤسس على الإخلاص

---

(١) روى بعضهم : أن رافعاً أصيب يوم غزوة أحد بسهم ، فقال ﷺ : (أنا أشهد له يوم القيامة) ثم مات رافع بعدئذ فى زمن الخليفة الأموى عبد الملك ابن مروان لما نقض عليه ذلك الجرح . (ينظر تاريخ الأمم والملوك ، للطبرى جـ ٢ ص ٥٠٥ ، والسيرة الحلبية ، للحلبى جـ ٢ ص (٢٣٣) .

(٢) فقد ذكر المؤرخون أن سمرة بن جندب الفزارى عمل للخليفة معاوية بن أبى سفيان على البصرة قبل قدوم عبيد الله بن زياد من خراسان وولايته البصرة سنة ٥٠ هـ / ٦٧٠ م ، وكان أحيانا يعمل سمرة عليها عند غياب ابن زياد عنها فى الكوفة ، ثم توفى سمرة سنة ٥٣ هـ / ٦٧٣ م . وقيل : سنة ٥٨ هـ / ٦٧٨ م (ينظر تاريخ الأمم والملوك للطبرى جـ ٤ ص ١٦٩، ١٧٤ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ٢١٤ ، ٢١٧، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، والكامل لابن الأثير جـ ٢ ص ١٤٩ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢١٢ ، والبداية والنهاية لابن كثير جـ ٨ ص (٣٣) .

(٣ ، ٤) أما الحرفة : فهى الرماية لدى المراهق رافع ، والمصارعة عند

والتقوى ، والرامى إلى الجهاد الحق فى سبيل الحق ، وأن النبى ﷺ لم يجز أولا لسبب قوى ، ثم أجاز أخيراً لسبب آخر أقوى ، أى ما كانت الإجازة أو عدمها لهذين المراهقين - رافع وسمرة - قد صدر بها القرار منه عليه الصلاة والسلام من فراغ ، وإنما نتيجة فحص واقتراع .

ونرجح أن إجازتهما جاءت نتيجة ما يلى : —

أولا : شدة تعلقهما سلفاً فى غزوة بدر الكبرى ، وحالا فى غزوة أحد بالجهاد واحتيالهما وأبويهما فى الوصول إليه رغبة فى النصر أو الشهادة .

ثانياً : اقتناع الرسول القائد عليه الصلاة والسلام بما أبداه رافع من خبرة دقيقة ومهارة فائقة فى الرماية ، وما أبرزه سمرة وأعرب عنه من تقدم وأصالة فى المصارعة . وذلك فضلا عما توسمه وتفرسه فيهما معاً من طاقة على القتال ، مع ملاحظة أن إجازتهما ومن على شاكلتهما من الغلمان المراهقين فى أية

= المراهق سمرة ، وأما الحيلة : فكانت قيام رافع على خفيه المرقعين متطاولا على أطراف أصابعه ، فصار بذلك أطولهم ، وانطلاق سمرة نحو زوج أمه ليطلعه على نبأ إجازة النبى رافعاً ... والدور العاطفى الذى قام به الأبوان ساعتئذ بين الرسول القائد عليه الصلاة والسلام ، والابنين المراهقين المتشوفين إلى الجهاد ، حتى كلل الله سعيهما بالنجاح .

وهنا نرى ألا تذهب النفس كل مذهب فى أن رافعا وسمرة قد نفعتهما فى هذا الشأن وساطة أبويهما . كلا ، إن الذى حمل النبى عليه الصلاة والسلام على أن يجيزهما أخيراً بعد أن كان قد منحهما هو ما أفصحت عنه حالهما ساعتئذ علناً من خبرة رافع فى الرماية ، ومهارة سمرة فى المصارعة ، وكلتاهما مطلوبتان فى المجاهد المسلم إبان الحرب والسلم ، لذا توسم ﷺ فيهما - أثناء ذلك الاقتراع الدقيق والفحص الشامل - الطاقة على القتال ، فأجازهما . وبالطبع كان أمر السن مفروغاً منه لديهما ، فقد بلغا الخامسة عشرة .

غزوة أو سرية ، كانت إجازة فى أضيق الحدود ، فلم تكن نظاماً متبعاً وسارياً . . .

وعليه . فلا يصح القول : بأنه عليه الصلاة والسلام أجاز فى الجهاد لمن أجاز من أولئك المراهقين ، بل وبعض الضعفاء - على ما سنورده وشيكا - كالأعرج ومن رقت عظامه لهرمه - تقوية لقلة عدد المسلمين فى جيشى بدر وأحد اللتين قد لاقيهما فيهما المشركون عدداً وعدة ، بل وصادموهم يومئذ بالقرب من ديارهم فى إحداهما ، وبعقر دارهم فى أخراهما ، لأنه عليه الصلاة والسلام أدرك يقينا أن النصر من عنـــد الله ، فلا داعى حينئذ للزج بمن لا تكتمل لديهم اللياقة للجهاد من أجل اجتلاب النصر أو الاستشهاد .

الفصل الثاني

إلحاف الضعفاء فى الخروج للجهاد وتحقيق الاستشهاد

المبحث الأول

نشاط عمرو بن الجموح (الأعرج) فى السعى للاستشهاد فى غزوة أحد :

كان ذلكم الأنصارى الخزرجى من بين أجلاء الصحابة ، وأرباب الأسر التى قذفت فلذات أكبادها لجهاد العدو ، فقد كان له أربعة أبناء من خيرة الشبان الغزاة ، قد أسهموا ـ مثل الأسود[1] ـ مع النبى عليه الصلاة والسلام كثيراً فى مصادمة المشركين ، من أجل إعزاز الدين .

وبحكم إسلامه الصحيح ، وإيمانه الصادق ، ومحبته العريقة للرسول القائد ، تحمس بشدة للجهاد مع جند الله فى غزوة أحد سنة ٣ هـ / ٦٢٥ م ، وألحف[2] فى ذلك ، رغبة فى الشهادة والجنة خير دار ، لدى أكرم جار .

وقد نسى عمرو ، أو تناسى أن مابه من عرج[3] واضح يحول صراحة بينه وبين تحقيق أمنيته ، فليس هو بحالته الراهنة ممن يجازون للجهاد عند

---

(١) ينظر السيرة النبوية ، لمحمد بن عبدالله بن يحيى بن سيد الناس جـ ١ ص ٤٢٣ مكتبة القدسى بالقاهرة للطبع والنشر والتوزيع سنة ١٤٠٦ هـ/١٩٨٦م.

(٢) ألحف : ألح . والإلحاف : شدة الإلحاح فى المسألة . (ينظر لسان العرب لابن منظور جـ ٥ ص ٤٠٠٩ ، والمصباح المنير للفيومى جـ ٢ ص ٩٢) .

(٣) العرج والعرجة : موضع العرج من الرجل ، والعرجان : مشية الأعرج ، وعرج عروجا ومعرجاً : ارتقى ، وأصابه شىء فى رجله ... وليس بخلقة ... وقد يكون خلقة . وهو أعرج بين العرج من عرج وعرجان ، وأعرجه الله تعالى . (ينظر لسان العرب لابن منظور جـ ٤ ص ٢٨٦٩ ، والقاموس المحيط ، للفيروز أبادى ، جـ ١ ص ١٩٧) .

عملية الاقتراع ، فله من الله بذلك رخصة[1] نفت عنه الحرج[2] .

إلا أنه رغم ذلك لم تفتر عزيمته ، ويتوقف أو حتى يقل نشاطه الحماسى عن السعى المتواصل نحو الجهاد والاستشهاد ، سالكا سبيله المحفوفة بالمخاطر بين الأسلاك والأشواك ، لكنها فى الحقيقة مفروشة بالورود والزهور ، وفى نفس الوقت اعترض بنوه طريقه بشدة ، وأرادوا حبسه ، رفقاً به ، وإشفاقا عليه . قائلين له : (إن الله قد جعل لك رخصة ، فلو قعدت فنحن نكفيك ، فقد وضع الله عنك الجهاد) .

قالوا ذلك ، وحسبوا أنهم قد أقنعوه وأبروه وأدوا واجبه عليهم ، وما نظنه على أية حال كان غافلا عن ذلك ، لأن من كان به مثل إحساسه - الخارق للعادة ، ونشاطه المتواصل فى طاعة الله والرسول ، وبالأخص فى جهاد أعداء الدين - كان من الذكاء بمكان ، ومن الدهاء بمكانة ، وتمنى كأبنائه المتفانين فى خدمة الإسلام من وقت لآخر ، الإسهام بكليته فى الجهاد ، ضارباً بعرجه عرض الحائط ، لذا لم يقنع بقولهم ، ولم يركن إليهم ، وسرعان ما قويت ميوله بشكل مدهش نحو السعى من أجل تنفيذ مطلبه وتلبية رغبته ، وعلى الفور شكاهم للرسول عليه الصلاة والسلام قائلا : (يا رسول الله ، إن بنى هؤلاء يريدون أن يحبسونى عن هذا الوجه ، يمنعونى أن أخرج معك فيه ، والله إنى لأرجو أن أستشهد ، فأطأ بعرجتى هذه الجنة[3]) .

---

(١) رخصة : تسهيل وتيسير فى الأمر (ينظر المصباح المنير للفيومى ج ١ ص ١٠٢) .

(٢) قال تعالى : (ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج) سورة الفتح : آية ١٧ .

(٣) ينظر زاد المعاد فى هدى خير العباد ، لابن قيم الجوزية ج ١ ص ٣٥٣ ، ج ٣ ص ٢٠٨ ط ٣ بمؤسسة الرسالة . ببيروت سنة ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م .

ونلاحظ من حسبانه فى سياق حديثه ـ المعبر عن معارضة أبنائه إياه ، وحماسه المتدفق للجهاد ، وقسمه وتأكيده بأنه يرجو رحمة ربه إياه بالشهادة فالجنة ـ نلاحظ أن النبى عليه الصلاة والسلام ربما كان يبادر بتلبية رغبته أمام هذا الظرف الراهن وتكريماً له ، لكن العكس كان واقعاً ، فحدث فجأة ما أفزع عمراً مؤقتا ، فقد راعى الرسول القائد ظروفه وتفحص أحواله بدقة فرق له فؤاده . وقال له (أما أنت فقد عذرك الله ، فلا جهاد عليك ، وضع الله عنك الجهاد[1]) .

وهنا نستشعر اتحاد قولى النبى وأبناء الرجل على الحيلولة بينه وبين الجهاد لا عن عمد وإساءة له ، وإنما مراعاة لعرجه الملازم له ، ورأفة به ، الأمر الذى غير مزاج عمرو ، وحز فى نفسه ساعتئذ ، فأخذ يضرب كفا بأخرى على ما فاته من أمر الجهاد والاستشهاد .

وكان يجمل بعمرو أن يقف عند هذا الحد ، تكريما لنظرة الرسول الفاحصة فى تقييم ظروفه والحكم عليه من خلالها ، وتعظيما لقوله له وما فيه من عظة ، وتقديراً لموقف أبنائه منه فى نصحهم إياه .

لكن حبه الجنة وما قرب منها كالجهاد والاستشهاد ، أعماه عن النظر إلى غيرها ، وأصمه عن سماع أى حديث عن غيرها ، لذا كشف من إلحافه فى هذا الصدد ، حتى لمس فيه الرسول القائد صدق الزهد فى دنياه ، وشدة الرغبة فى أخراه ، فأجازه قائلا لأبنائه ـ كأنه عليه الصلاة والسلام يطيب قلوبهم

---

(١) ينظر المرجع السابق ، لابن قيم الجوزية ، جزءاً وصفحة ، والسيرة النبوية للندوى ص ١٦٩ ، والسيرة النبوية ونشأة الدولة الإسلامية . د . محمد الطيب النجار وآخرين ص ١٦٩ ، ١٧٠ طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب . سنة ١٩٧٣ م .

ويستأذنهم فى تلك الإجازة ، ويوفق بين جميع الآراء ما دام ذلك فى مصلحة عمرو ، ويشرك بنيه فى تلك القضية الحساسة حتى لا توجد أى فوارق بين الرجل وبنيه ـ قال : (وما عليكم أن تدعوه ، لعل الله عز وجل أن يرزقه الشهادة) .

وبطبيعة الحال بادر الأبناء بلا استثناء ساعتئذ ـ أدباً منهم وتواضعا فى حضرة الرسول وانصياعاً لأوامره ، واحتراماً لأبيهم وإكباراً له وتطييباً لخاطره ـ بادروا على الفور بتلبية رغبة النبى عليه الصلاة والسلام ، وسرعة تنفيذ مضمون قرار الإجازة ، وما كان متفقا على تنحيته عن الجهاد منذ ساعات ، تم تعديله إلى الاتفاق على خروجه فى لحظات .

وجدير بالذكر أن الرسول عليه الصلاة والسلام لم يجزه ـ فى البداية ـ من فراغ ، وإنما كان ذلك مراعاة لظروفه ، فهو غير سليم الأعضاء ، وسلامتها تعتبر شرطا برأسه من شروط مسوغات اللياقة للجهاد ، ورجل الإنسان كعضو بازر فى جسمه بما تنتظم من أصابع وقدم وعقب وكعب وساق ، وما إلى ذلك ، عليها دور من الأهمية بمكان فى تحركات الإنسان هنا وهناك ، وبخاصة الجندى الذى يلزمه فى الميدان أن يكر ويفر ويتحيز إلى فئة أو يتحرف لقتال ، ويتقدم ويتأخر ، ويداور ويحاور ، ويناور ويمتطى صهوة فرسه أو ينزل ، وما إلى ذلك من الحركات والسكنات التى هو فى أمس الحاجة إليها عند لقائه بخصمه . وبالطبع كل ذلك أوجله ليس متوفراً لدى عمرو ، وأن بنيه المجاهدين أغنوا عنه فى ذلك القتال المفروض ، فخروجه للجهاد على تلك الحال يشكل خطراً على جند الله فى غزوة أحد ، ويطمع المشركين فيه . ثم فى النهاية يزيد من عدد المفقودين ، وهو صنيع غير سليم ، ووضع غير مستقيم ، لا يقره الرسول القائد والمسلمون المجاهدون ، بناء على قوانين الجندية وقتئذ المعمول بها فى العسكرية والحرب .

يقول بعض الرواة ـ مفصحا عن تحركات عمرو بن الجموح فور منحه قرار الخروج للجهاد فى غزوة أحد وقد غمره السرور لذلك ـ يقول :(فأخذ سلاحه وخرج ـ ضمن جند الله تحت قيادة الرسول عليه الصلاة والسلام يومئذ ـ وأقبل على القبلة . وقال : « اللهم ارزقنى الشهادة ، ولا تردنى خائباً إلى أهلى » . ثم قاتل فى أحد حتى استشهد ـ وابنه خلاد ـ فقال النبى عليه الصلاة والسلام : « والذى نفسى بيده إن منكم من لو أقسم على الله لأبره . منهم عمرو بن الجموح ، ولقد رأيته يطأ فى الجنة بعرجته »[1] .

أقول : إن عمراً هذا فى سنه وعرجه وجهاده ساعتئذ ، حقيق بأن يجيب الله ـ الذى يجيب المضطر إذا دعاه ـ دعوته إن شاء سبحانه ، وقد تحققت . وأيدها قول الرسول القائد عقب استشهاد الرجل .

ونرى أن ما قام به النبى عليه الصلاة والسلام حيال عمرو بن الجموح وبنيه ـ إبان تلك الظاهرة العسكرية وعلى مشارف غزوة أحد ـ عمل مشكور أقرته جميع الأطراف أخيرا . وهكذا تكون مواقف النبلاء فى سرعة حل ما يعترضهم من قضايا شائكة حلا سليما وعادلا ومناسباً ومراعى فيه مقتضى الحال . ويؤيد ذلك كله ما سبق أن قضى فيه عليه الصلاة والسلام بالحق مع كل من عمير بن أبى وقاص فى غزوة بدر ، ورافع بن خديج وسمرة بن جندب فيها أيضاً ثم فى غزوة أحد . هذا إلى جانب ناس آخرين من بين الغلمان والمراهقين ومن إليهم ، مع فارق بسيط فى الحال والزمان والمكان والشخص

---

(١) ينظر الكامل ، لابن الأثير جـ ٢ ص ٦٧ ، والسيرة الحلبية ، للحلبى جـ ٢ ص ٢٥٥ ، ٢٦٣ ، والسيرة النبوية ، لابن سيد الناس جـ ١ ص ٤٢٣ ، ٤٢٤ ، ٤٤١ ، وحياة الصحابة لمحمد بن يوسف الكاندهلوى جـ ١ ص ٣١٧ وما بعدها . طبع دار المعرفة ببيروت .

والحادثة ، واتحاد فى الهدف المرجو ، وهو تكريس الجهود وتكثيفها على الإسهام فى الجهاد .

ونستنبط من قضية عمرو بن الجموح ـ ذلك المسلم المجاهد ، قوى العزيمة صادق القصد ـ ما يلى :

أولا : أن حالته كانت نادرة ومؤثرة بالإلحاف فيها على أبنائه فى البداية تارة ، ثم على الرسول صلوات الله وسلامه عليه فى النهاية تارة أخرى استدعته أن يجيزه ، ويستدر عطف بنيه لموافقته ، وفى ذلك الحل الملائم من جمال السياسة ما فيه .

ثانياً : كانت تلك الإجازة النبوية لعمرو ، وموافقة أبنائه عليها ، دافعاً قوياً له كى يستجمع قواه ، ويقبض سلاحه ، ويتوجه للقتال مردداً قوله : (اللهم لا ترددنى) يعنى إلى المدينة . فلما استشهد جعله بنوه على بعير ليحملوه إلى المدينة . يقول المؤرخون : فاستصعب عليهم البعير ، فكان إذا وجهوه إلى جهة سوى المدينة سارع إليها ، إلاجهة المدينة ، فكان يأبى الرجوع إليها ، فلما لم يقدروا عليه ساعتئذ تذكروا قول أبيهم : (اللهم لا ترددنى إليها) . فدفنوه فى مصرعه[1] . إذن ، فلا مناص من أن دعوته أجيبت ، ونرى أنها واحدة من كرامات الشهداء والأولياء ، إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار.

ثالثاً : فى منع الرسول إياه فى البداية رعاية لظروفه ، وموافقة لآراء بنيه الذين يعنيهم أمره ، جاهد أم لا . وفى إجازته أخيراً تطييب لفؤاده ، وتقدير لأبنائه .

---

(١) ينظر السيرة النبوية ، لابن هشام جـ ٣ ص ٣٠ ، ٣١ ، ٣٧ (متناً وهامشا) ، والدرر . لابن عبد البر ص ١٦٥ ، والسيرة النبوية ، لزينى دحلان ص ٥٧ ، ٦٦ .

رابعاً : فى ظاهرة انخراط عمرو بن الجموح وأبنائه كأسرة عربية مسلمة ـ وأمثالها كثير حينئذ ـ فى سلك جند الله المجاهدين ، ومزاولتهم أنشطتهم فى الجهاد إبان الغزوات تحت لواء النبوة وحرصهم الشديد على ذلك ، لفت الأنظار ، ويقظة الأفكار لدى كل المسلمين فى جميع الأعصار والأمصار ، نحو تقدير تلك الأسرة ومن حذا حذوها فى ذلك الميدان ، فقد أسهموا جميعاً بوعيهم وفكرهم وقواهم وسائر مايملكون فى تأسيس وتكوين الدولة العربية الإسلامية ، ونشر ذلك الدين الخالص هنا وهناك . أيضاً ، فى تلك الظاهرة جذب شديد لكل مسلم غيور على أمور دينه نحوهم ليقتدى بهم ، فهم حزب الله ، ألا إن حزب الله هم المفلحون .

المبحث الثانى

تكريس أبى سعد خيثمة (طاعن السن ، رقيق العظام) جهوده على الخروج فى غزوة أحد للاستشهاد :

لم يعدم الإسلام فى أول أمره ، والرسول العظيم إبان حياته من إسهام سواعد أبناء الإسلام ـ ما بين غلام ومراهق ، وشاب وشيخ وسليم وسقيم ـ فى الاستباق لاعتناقه ومؤازرة رسوله أينما حل أو ارتحل ، رغبة فى رضوان الله عنهم ، وإنعامه عليهم بالجنة .

ومن بين أولئك المسلمين المتفانين فى خدمة دينهم الحنيف ورسوله القائد ، ذلك الصحابى الجريء أبو سعد خيثمة الذى دفعه بالغ حماسه الدينى ، وقادته عروبته الأصيلة إلى التنافس الشديد مع ابنه ـ فلذة الكبد ، وحشاشة الفؤاد ـ سعد ، فى السعى المكثف المتواصل نحو الجهاد ، كى يفضى به إلى الاستشهاد . فقد تقارعا على الخروج فى غزوة بدر الكبرى سنة ٢ هـ / سنة ٦٢٤ م . وحظى بذلك ابنه سعد ، فخرج على الفور ، وجاهد فى الله حق

جهاده ضد المشركين ، حتى استشهد . فلم يكن حزن الأب عليه يوازى حزنه على أنه هو نفسه كوالد لم يصبه الدور مثله فى تلك الغزوة .

لذا ما أن جاءت غزوة أحد سنة ٣ هـ / سنة ٦٢٥ م - بعد بدر بعام واحد وشهر واحد[١] - وشرع النبى ﷺ فى التهيؤ والتأهب لها باقتراع المجاهدين اللائقين ، حتى ابتدره أبو خيثمة بقوله : (لقد أخطأتنى وقعة بدر، وكنت والله عليها حريصا ، حتى ساهمت[٢] ابنى فى الخروج ، فخرج سهمه ، فرزق الشهادة[٣] . وقد رأيت البارحة[٤] ابنى فى النوم فى أحسن صورة ، يسرح فى ثمار الجنة وأنهارها . ويقول لى : « الحق بنا ترافقنا فى الجنة ، فقد وجدت ما وعدنى ربى حقا » . وقد - والله يا رسول الله - أصبحت مشتاقاً إلى مرافقته فى الجنة ، وقد كبرت سنى ، ورق عظمى ، وأحببت لقاء ربى ، فادع الله لى يا رسول الله أن يرزقنى الشهادة ومرافقة سعد فى الجنة) .

وفى الحقيقة هى ظاهرة طيبة أفصح عنها أبو خيثمة مبرزاً فيها شديد ندمه على فوات خروجه مجاهداً فى غزوة بدر التى سبقه إليها ابنه سعد ، فقاتل فيها حتى قتل ، فلم تبلغ درجة أسفه عليه حجم ندمه على فوات خروجه فيها ، ونسى الرجل الوالد أو تناسى - وهو على أبواب غزوة أحد -

---

(١) كانت (غزوة بدر الكبرى) فى غضون شهر رمضان سنة ٢ هـ / مارس سنة ٦٢٤ م ، (وغزوة أحد) فى غضون شهر شوال سنة ٣ هـ / أبريل سنة ٦٢٥ م .

(٢) ساهمت : قارعت - أى أنه أجرى القرعة بينه وبين ابنه سعد للخروج جهاداً فى غزوة بدر الكبرى ، فكانت من نصيب ابنه دونه .

(٣) ينظر السيرة النبوية ، لابن سيد الناس جـ ١ ص ٣٧١ .

(٤) البارحة : الليلة الماضية .

هرمه وضعفه الشديد بتحول جسمه ورقة عظمه ، وقد وضح فى تلك الظاهرة القسم غير مرة والتحقيق والاقتراع بينه وبين ابنه على الخروج فى بدر ، إذ كان شديد الحرص عليه لكن لم يصبه الدور يومئذ . وبدا فيها نحوى رؤياه السارة ، وكثافة توقانه للقاء ربه عن طريق الجهاد والاستشهاد ، والجنة كابنه ، وارتمائه فى أحضان الرسول القائد عليه الصلاة والسلام ساعتئذ ليجيزه ؛ وليدعو الله له أن يرزقه الشهادة ، ومرافقة ابنه فى الجنة ونعم المنة .

الأمر الذى حمل النبى - وقد سمع منه كل ذلك ، وشاهد أحواله بشأن ابنه ومصيره المشرف ونسيانه كل شىء إلا التفكير فى أمر الجهاد والاستشهاد والجنة ، وما إلى ذلك - على إجازته فوراً بعد أن لاحظ فيه أنه قد اكتمل معظم مسوغات اللياقة للجهاد ، سوى تمام الطاقة والقدرة على مصادمة الخصوم ، فقد كانت لديه إلى حد ما . أيضاً ، دعا له الله تعالى بأن يرزقه الشهادة فى سبيله يومئذ ، وبأن يتزامن فى الرفقة مع ابنه فى الجنة دار الكرامة .

وما أن أجازه عليه الصلاة والسلام دون تردد أو توان ، وحقق له كافة مآربه حتى هدأت نفسه واطمأن قلبه ، وأفعمه السرور فخرج بسلاحه على الفور ضمن الجيش الإسلامى الغازى فى أحد ، وقاتل حتى استشهد [1] .

ومن خلال عرض هذه القصة المشرقة نستطيع استنباط العوامل (الأسباب) التى دفعت النبى ﷺ ساعتئذ أن يجيزه . وهى :

---

(١) ينظر السيرة النبوية ، لابن هشام جـ ٣ ص ٦٠ ، وزاد المعاد ، لابن قيم الجوزية جـ ٣ ص ٢٠٨ .

أولا : حرصه الشديد على الخروج فى بدر مجاهداً ، إلا أن ابنه نتيجة المقارعة سبقه إليها فاستشهد فيها ، فبات ذلك الحرص محل اعتبار له فى نظر الرسول يوم أحد .

ثانياً : استشهاد الابن سعد فى بدر ـ وفوزه بالجنة وتنعمه فيها ، حسبما قص على والده فى تلك الرؤيا ـ قوى أمر الجهاد وتوابعه كالاستشهاد والجنة فى نفس أبى خيثمة عن ذى قبل ، حتى أصبح شغله الشاغل فأشفق الرسول عليه بالإجازة .

ثالثاً : حديثه الطويل ـ الهادف إلى توقانه المكثف للإسهام فى عمليات الجهاد ، رغم كبر سنه ، ورقة عظمه ، ونحول جسمه ـ ذلك الحديث مع الرسول عليه الصلاة والسلام إبان اقتراعه المجاهدين وتوجيههم إلى أحد ، رقق عليه قلب الرسول القائد الذى يملك حينئذ المنع والمنح ـ فى هذا الأمر بالذات ـ فقدم منحه تقديراً لحاله .

رابعاً : تنافسه وابنه فى أمر الجهاد ـ شأن بعض الأسرات الأخريات المسلمات اللاتى تضمن عرضها سلفاً هذا البحث ، حدا بالرسول القائد الملهم أن ينظر فى تقديره لجهود تلك الأسرات نظرة أدق منها إلى الأفراد ، رغم أن فى كل خير فى نظره .

خامساً : ما اشتمل عليه حينئذ أبو سعد خيثمة ـ كمسلم صحيح الإسلام ، مؤمن صادق الإيمان ـ من شحنة دينية مكثفة زهدته فى دنياه ، ورغبته فى أخراه . . ومن ظاهرة منافسة شديدة فى الخير مع ابنه سعد وغيره من أولئك المجاهدين الصادقين ، مضمون ذلك الاشتمال ونحوه فى الرجل جوز الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام ساعتئذ إجازته للإسهام فى غزوة

أحد مجاهداً ، وذلك أسوة بالندرة من الغلمان والمراهقين والضعفاء (فى السن أو الطاقة على القتال أو تقصير عضو كالرجل ـ مثلا ـ عن القيام بوظائفه كاملة) ممن كانت لهم مواقف مع الرسول عليه الصلاة والسلام فى ساعة الاقتراع للخروج فى بدر ، بل وفى أحد أيضاً . فأجازهم للخروج مع جند الله ، رغم أن ظروفهم كانت أصعب من ظروفه التى لمسها فيه القائد العظيم فاعتبرها مسوغة لخروجه ، فأجازه .

خاتمة

لاريب فى أن فترة الثلاثة عشر عاماً التى قضاها الرسول ﷺ والمسلمون بمكة المكرمة بين البعثة والهجرة فى كنف بيت الله الحرام ، كانت من القسوة بمكانة فوق أن تحد أو توصف ، لذا تركت فى نفوس المسلمين فى قلتهم حينئذ ، من طرف المشركين فى وفرتهم وسطوتهم هناك أسوأ الآثار ، لاسيما وأن الجهاد (القتال) كان يومئذ ممنوعاً منه أولئك المسلمون ، فالتزموا خلال تلك الفترة ـ المعبر عنها بالعهد المكى ـ بالكف والعفو والصبر ، حيث إن النبى لم يؤذن بقتال هناك حينئذ إلى أن يقضى الله أمراً كان مفعولا ، وكأن المسلمين فى تلك الظروف المحيطة بهم شبه محصورين ومغلوبين على أمرهم .

فلما هاجروا من أجل دينهم الحنيف ـ مع الرسول المعلم والقائد ﷺ ومن قبله ومن بعده ـ من مكة إلى المدينة ، ودخل الناس بها فى دين الله أفواجاً ، ونما عددهم وزاد زيادة مطردة يوماً عن يوم ، وشرع عليه الصلاة والسلام يضع حجر الأساس ، فالبناء ، فالتعلية شيئاً فشيئاً لصرح الدولة العربية الإسلامية الحديثة ، وأذن الله لهم فى الجهاد ، ثم افترضه فيما بعد عليهم ، لما كان هذا كله قد وقع وتم ، اندفع لمؤازرته عليه الصلاة والسلام المسلمون ـ العربى منهم والأعرابى وغيرهما ، والغلام والمراهق منهم والبالغ ، والشاب منهم والشيخ ، والغنى منهم والفقير ، والسليم منهم والسقيم ، ومكتمل القدرة والطاقة على القتال منهم ، ومفتقد شيئاً منها ـ وذلك بصورة مشرفة بدا فيها الحماس المتدفق ، والتنافس المكثف للجهاد فى سبيل الله بدو الشمس فى قبة السماء ، الأمر الذى أثلج الصدور ، وطمأن القلوب ، وبشر بخير لمستقبل الإسلام ودولته الناشئة فى مقاومة ومهاجمة الخصوم على اختلاف أنواعهم بشبه جزيرة العرب وخارجها .

وإذا كان ذلك النشاط المتدفق نحو الجهاد فى سبيل الله قد بدا فى غير غزوة وسرية فى عصر النبوة ، ممن لم تكتمل فيهم شروط اللياقة - لكن الرسول القائد عليه الصلاة والسلام قد أجازهم لأمور فيهم رأى أنها مسوغة لإجازتهم فى بدر أو فى أحد ، وهم بعد ندرة نادرة ، انتظم قضاياهم وموقفه عليه الصلاة والسلام منهم هذا البحث التاريخى المتواضع - فإنه دون شك كان فى سواهم ممن اكتملت فيهم جميع المسوغات أكثر وأكبر[1] حرصاً منهم على إعلاء كلمة الله ، ونصرة دينه ورسوله ، وأملا فى نصر وغنيمة ، أو استشهاد وجنة عرضها كعرض السماء والأرض .

وحينئذ أى قتال هذا الذى أقدم عليه أولئك الغلمان والمراهقون والضعفاء الذين عقدوا العزم جميعهم على الإسهام فيه بشتى الوسائل ، مهما كانت الظروف والنتائج ؟ رغم أنهم غير مستوفين شروط اللياقة ؟

إنه على حد تعبير البعض ، لقتال عنيف قائم على التأهب للموت ، لاتجد فيه أى معنى للتقارب[2] - فضلا عن التعادل - فى العدد والعدة بين

---

(١) كان السعى المكثف المتواصل من المسلمين - لائقهم للقتال وغير اللائق - نحو الخروج للجهاد مع النبى عليه الصلاة والسلام أو أحد الصحابة موضع دهشة واستغراب حمله ﷺ على المبادرة بوضع مسوغات اللياقة البدنية وغيرها التى ينبغى توافرها فى المجاهد ، وسرعان ما نفذها ، إذ كان يتسابق للخروج فى الغزوة الواحدة أو السرية غير واحد من الأسرة الواحدة ، كأخوين ، أو أب وابنه ، بل وأبنائه ، وطى هذا البحث مظاهر منها مفصلة ، رغم ما أبداه هؤلاء من إلحاح ، واصطناع حيلة وأيمان مغلظة ، والطلب من الرسول أن يدعو الله لهم برزق الشهادة ودخول الجنة ... إلى غير ذلك من سائر الأساليب الشريفة التى يأملون من ورائها إجازة النبى إياهم للخروج مجاهدين طمعاً فى نصر وغنيمة أو الشهادة ونعيم الجنة .

(٢) ينظر السيرة النبوية ، للندوى ص ١٨٩ ، ٢٢٧ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ .

المسلمين وخصومهم[1] .

إن المنصف يقر بان سر إقدام أولئك الغلمان والمراهقين والضعفاء يرجع إلى ما أودعه الله فيهم من إيمان صادق تحلت به أفئدتهم ، وما ركزه فى نفوسهم وطباعهم من حب لله وللرسول ، وما بثه فى جسومهم من غيرة حارة على الحنيفية السمحاء ، والعروبة العريقة فى مواجهة الوثنية وغيرها . فحيثما وجد الإيمان ، وتحققت محبة الرب والرسول ، برز الإقدام ، وظهر الاستبسال ، وحيثما فقدت المحبة فى الفؤادبات الإقدام إحجاماً ، والاستبسال تقاعساً[2] .

ونلاحظ أن حماس أولئك المستبقين ـ الذين تنطبق عليهم كل مسوغات الخروج للقتال ـ وتنافسهم المكثف نحو الخروج للجهاد ، كان قد بدا واضحاً فى غزوات (بدر الكبرى ، وأحد ، والخندق)[3] وبصورة متكررة نمت

---

(١) كان جيش المشركين فى غزوة بدر الكبرى نحو الألف مقاتل ، وجند المسلمين أقل من ثلث الخصوم ، وكان جيش المشركين فى غزوة أحد نحو ثلاثة آلاف ، وجند المسلمين أقل من ربع العدو .

(٢) ينظر السيرة النبوية ، لابن هشام جـ ٢ ص ٦٦ ، وفقه السيرة . د . محمد سعيد رمضان ص ١٩١ .

(٣) أى طوال الفترة التى كان المشركون ومن إليهم كاليهود والنصارى والمنافقين خلالها يكيدون للإسلام وأهله ويمكرون بهم للنيل منهم والإصرار على استئصال شأفتهم فى قلب المدينة أو فى ضاحيتها ، أوعلى مقربة منها وذلك منذ الهجرة إلى غضون العام الخامس منها — الذى وقعت فيه غزوة الخندق (الأحزاب) وما وقع بين الفريقين حينئذ من سرايا وغزوات . أما بعد غزوة الخندق فقد تبدلت الحال لصالح المسلمين نتيجة صبرهم ونصرهم وتجلدهم ، فأصبحوا يصادمون خصومهم فى عقر دارهم مهما نأت عن المدينة ، كما جرى فى كل من غزوات (بنى المصطلق ، وخيبر ، وفتح مكة ، وحنين ، والطائف ، ومؤتة ، وتبوك) ونحوها .

عن الإلحاف والاحتيال والتسابق والاقتراع وما إلى ذلك . نلاحظ أنه حماس وتنافس كان بدرجة فى الغزوات المشار إليها أكثر وأكبر منه فى غزوات بعدها ، ونرجح أن ذلك يرجع للأسباب التالية :

أولا : ما لاقاه المسلمون طوال العهد المكى - وهم قليلو العدد والعدة - من سوء سلوك وخشونة معاملة على أيدى خصومهم المشركين - فى كثرتهم عدداً وعدة - حتى أرغموا قسراً على مغادرة مكة - وطنهم الأصلى - إلى الحبشة مرتين ، ثم الطائف ، ثم أخيراً إلى يثرب (المدينة) مضحين بالأهل والمال وغيرهما من زخرف الحياة الزائل ، فى سبيل تمسكهم بالإسلام وصونه والتفانى فى نشره هنا وهناك ...

ثانياً : خروج المشركين - ومن شايعهم - إلى المسلمين جهاراً نهاراً لمصادمتهم فى عقرديارهم (المدينة) نفسها - كما حدث فى غزوة الخندق سنة ٥هـ / سنة ٦٢٧ م - أو على مشارفها - كما وقع فى غزوة أحد سنة ٣هـ / سنة ٦٢٥ م - أو على مقربة منها - كما جرى فى غزوة بدر الكبرى سنة ٢ هـ / سنة ٦٢٤ م - وذلك بكل استهتار ووقاحة وما فيه ذل المسلمين .

ثالثاً : نصر المسلمين فى بدر - وعددهم ما بين الثلاثمائة واثنى عشر مقاتلا ، إلى الثلاثمائة وتسعة عشر - على المشركين - البالغ عددهم فيما ما بين التسعمائة وخمسين مقاتلا ، والألف - واغتنامهم منهم ، وقتلهم سبعين وأسرهم مثلهم ، من بين شبابهم وشيوخهم وكبرائهم وساداتهم وقادتهم وأثريائهم . وشيوع ذلك النبأ قاصم الأنياب والظهور فى أنحاء العالم أجمع ، ذلك الانتصار العظيم قوى ظاهرة الخروج للجهاد فى نفوس المسلمين عن ذى قبل - سواء منهم اللائق للجهاد وغير اللائق - وبالأخص من لم يحضروا غزوة بدر إذ أن الجهاد إبانها كان مأذونا فيه فلم يفرض بعد .

رابعاً : أن (غزوتى بدر الكبرى ، وأحد) وقعتا على التوالى فى مطلع العهد المدنى ، وحينئذ كانت آثار قسوة المشركين على المسلمين طوال العهد المكى . لا تزال باقية وعالقة بالنفوس والأفئدة العربية الإسلامية المجاهدة ، والتى أشربت حب الإيمان فانجذبت بقوة نحو الجهاد فى سبيل الله ونصرة الإسلام .

هذا ، ولا يغيب عن الأذهان أو يشرد عنها ذلك التنسيق الجميل الصادر عن الرسول الأعظم ، والإمام المعلم ، والقائد المقدم ﷺ ، بشأن النظم الحربية والقوانين العسكرية والميدانية فى عصره . فقد كان ضابطاً لها إلى أبعد الحدود ، ودقيقاً فى تطبيقها وتنفيذها وإنجازها ، وما كانت إجازته لواحد من بين أولئك الغلمان المراهقين والضعفاء - الذين لم تكتمل فيهم جميع مسوغات اللياقة للخروج مجاهدين فى سبيل الله - إلا فى أضيق الحدود ، وبعد إجراء بعض الاختبارات لتحقيق نوع مهارة وحرفة قد تكون مسوغاً للخروج ، أو ميل شديد بلا حدود للجهاد - رغم حداثة السن ، أو كبره ، أو الهرم ونحول الجسم ورقة العظم - أسوة بالغير من المسلمين المجاهدين من بين أفراد الأسرة نفسها أو من غيرهم رغبة فى النصر أو الشهادة وما يتبعهما .

حرص عليه الصلاة والسلام على كل ذلك ، فلم يقبل فى إجازة هؤلاء ومن على شاكلتهم شفاعة شفيع ، أو وساطة ، أو قرابة ، أو مجاملة . فضرب بذلك التنسيق والعدل فى العمل بمقتضاه مع الجميع بلا استثناء ، المثل الأعلى الحى والرائع ، ودل بيقين على أنه رسول كريم ذى قوة - فى حل وتنظيم جميع أمور ومشاكل الدين والدنيا بمختلف أنواعها ونجح فى ذلك .

يقول بعض المؤرخين : (... وفى غزوة أحد استعرض عليه الصلاة والسلام الشباب ، فرد من استصغره عن القتال ... وأجاز من رآه مطيقاً ... فقيل : أجاز من أجاز لبلوغه بالسن خمس عشرة سنة ، ورد من رد لصغره

عن سن البلوغ . وقالت طائفة : إنما أجاز من أجاز لإطاقته ، ورد من رد لعدم إطاقته ، ولا تأثير للبلوغ وعدمه فى ذلك)"[1] .

وإذا كان البعض يؤيد قول تلك الطائفة ، معللا تأييده إياها بأن النبي عليه الصلاة والسلام كان عمله هو الأصوب فى كلا الحالين[2] .

فإننا نقول : نعم كان عمله ﷺ هو الصائب فى الحالين ـ حال بلوغ سن الخامسة عشرة أوعدم بلوغها ، وحال تحقق الطاقة كاملة أوتحققها إلى حد ما ، وفى الوقت نفسه نلقى الضوء على هذه الظاهرة ـ على ما استقيناه من أقوال المؤرخين ومن إليهم ـ فنفرق بين من هم دون بلوغ الخامسة عشرة ، ومن بلغوها فما فوقها .

فأما من هم دونها ، فقد ثبت أنه عليه الصلاة والسلام ردهم عن الخروج للجهاد فى بدر ، ثم فى أحد ، فلما كانت غزوة الأحزاب ـ وقد بلغوا تلك السن المشروطة فى الجهاد ـ أجازهم ، ولنستنبط من ذلك أن بلوغ الخامسة عشرة مظنة تحقق القدرة والطاقة .

أما من بلغوها فما فوقها فهم نوعان : أحدهما : مكتمل مسوغات اللياقة للجهاد والتى منها بلوغ تلك السن المذكورة ، فكان يجاز . والنوع الآخر : الضعيف لكبر سنه أو لرقة عظامه ونحول جسمه ، أو لعرجه ونحو ذلك ، فلم يجز . وإذا كان أفراد معدودون ومحدودون من هذا النوع الأخير قد أجيزوا للجهاد فعلا ـ وبالتحديد فى غزوة أحد ـ رغم ما بهم من علة

---

(١) ينظر صحيح البخارى ، لأبى عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى جـ ٥ ص ٢٠٤ ، جـ ٧ ص ٣٠٢ طبعة الشعب بالقاهرة سنة ١٣٧٩ هـ ، وزاد المعاد لابن قيم الجوزية جـ ٣ ص ١٥٩ ، ١٩٥ ، ٢١١ .

(٢) ينظر زاد المعاد ، لابن قيم الجوزية جـ ٣ ص ٢١٨ .

العرج أو كبر السن أو نحول الجسد ونحو ذلك ، فهذه حالة فردية نادرة — لم تكن نظاماً متبعاً — والنادر لا حكم له ، إذ أن الرسول عليه الصلاة والسلام قد أجازهم فيها بعد إلحاف منهم ، ورأى أن فى ذلك مصلحتهم دينياً.

وبعد . فإنه لا يسع المسلمين بعامة ، وسائر رجالات الحكم والإدارة والسياسة والحرب بخاصة فى كل زمان ومكان إلا الثناء اللا محدود على أولئك الأشبال الأبطال ، والرجال العمال ، فيما قاموا به على رؤوس الأشهاد فى عصر النبوة ـ العهد المدنى منه ـ من حماس متدفق متصل ، وتنافس شديد واستباق نحو الجهاد ، لا من أجل دنيا يصيبونها ، وإنما من أجل إعزاز دين اعتنقوه ، وإله فرد عبدوه ، ورسول صادق قائد أحبوه فاتبعوه ، وآخرة يتوقون إليها ، وجنة تجرى من تحتها الأنهار يخلدون بها . أجل . إن صنيعهم ذلك ـ حتى أعلوا كلمة الله ، وثبتوا أركان الإسلام والدولة ـ لهو المثل الطيب فى تاريخ الإسلام والعروبة والجهاد والجندية وسائر حروب الفتوحات الإسلامية ، وما أحوجنا اليوم إلى الاقتداء بهم[1] . والنسج على منوالهم . والسير خلفهم على جادة الطريق والدرب الموصل إلى بلوغ الغاية . فمن سار على الدرب وصل .

---

(١) فهم بحق ممن صاغتهم القيادة الإسلامية الأولى من أبناء هذه العقيدة صياغة فريدة ، وربتهم تربية متكاملة ، فكانوا صورة دعوتهم الحقة النيرة فى فكرهم وسلوكهم وعلمهم وعملهم وجهادهم المتواصل الذى كانوا فيه ـ وفى اجتهادهم ـ يصدرون عن المدرسة النبوية فى سمو الغاية ، ونبل الوسيلة ، وتوافرت فيهم شروط أهلتهم تأهيلا عالياً لحمل الرسالة ، ونشرها فى آفاق المعمورة ، وتحقق ـ بفضل من الله عز وجل ـ ثم بصدق إيمانهم ، وإخلاص جهادهم ذلك المد الإسلامى الكبير الذى يعد بحق معجزة التاريخ ، حيث كانت غايتهم إعلاء كلمة الله ، وإقامة شرعه فى الأرض ، ونفاذ أحكامه . ووسيلتهم فى ذلك تربية النفوس على الطاعة ، وتزكيتها بالعمل الصالح ، وأخذها الدائب بالإعداد والاستعداد ، ثم العمل المتواصل =

وفى الحقيقة أن دينا كالإسلام بسماحته وسيادة مبادئه ، هذا شأنه فى مختلف المجالات بعامة ، والحربى منها بخاصة ، لأجدر بالاعتناق ، والتعلق بأهدابه ، والارتماء فى أحضانه ، والتفانى فى نشره بين الخلائق أجمعين .

وأن رسولا كريما قائداً ماهراً فى كافة المجالات ، ذلك قراره الحكيم بشأن من يخرجون للجهاد فى سبيل الله ، لابد أن يوقر ويؤازر ويحترم صنيعه ، ويعض عليه بالنواجذ .

وأن جهاداً ضد خصوم الإسلام - على اختلاف مسمياتهم وعقائدهم - هذا شرطه ، لابد أن تفرز وتقترع - بدقة بالغة ، وعناية فائقة - عناصر جنده المطيقة للقتال فى كافة الأحوال .

وأن صحابة فدائيين مجاهدين فى الله حق جهاده ، لا يخافون فيه لومة لائم ، وكانوا إبان الغزوات والسرايا فى عصر النبوة حماة الإسلام ، والذابين عنه ، والسعاة إلى تثبيته ونشره - كمن انتظم بعضهم هذا البحث - لتجب القدوة بهم دائماً وأبداً ، لأنهم اقتفوا أثر ذلكم الرسول القائد ، والنبى الأمى ، فقادوا وسادوا وفازوا برضوان من الله أكبر .

والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد النبى ، وآله الطاهرين ، وصحابته أجمعين ، وسلم .

= والكفاح المستمر لإزالة القوى الطاغية المعادية التى تعيق إقامة دين الله فى الأرض (ينظر لمحات فى الثقافة الإسلامية ، لعمر عودة الخطيب ص ١٤٧ ط ٧ بمؤسسة الرسالة . ببيروت سنة ١٤٠١ هـ / سنة ١٩٨١ م .

فهرست أهم المصادر والمراجع

١ ــ القرآن الكريم .

٢ ــ أسد الغابة فى معرفة الصحابة ــ لأبى الحسن بن الأثير الجزرى. طبع دار الفكر ببيروت سنة ١٣٩٠ هـ / سنة ١٩٧٠ م .

٣ ــ إمبراطورية العرب ــ لجون باجوت جلوب ــ تعريب خيرى حماد ــ ط ١ . مطابع دار الغندور ببيروت سنة ١٩٦٦ م .

٤ ــ البداية والنهاية ــ للحافظ بن كثير الدمشقى ــ مطبعة السعادة . بمصر .

٥ ــ تاريخ الأمم والملوك ــ لمحمد بن جرير الطبرى ــ طبع دار الفكر بالقاهرة سنة ١٣٩٩ هـ / سنة ١٩٧٩ م .

٦ ــ تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامى ــ الدكتور أحمد مجاهد مصباح ــ ط ٢ بدار الطباعة المحمدية بالأزهر سنة ١٣٩٨ هـ / سنة ١٩٧٨ م .

٧ ــ حياة الصحابة ــ لمحمد بن يوسف الكاندهلوى ــ مطبعة دار المعرفة . بيروت .

٨ ــ الدرر فى اختصار المغازى والسير ــ لابن عبد البر ــ طبع مؤسسة الرسالة ببيروت سنة ١٤٠٢ هـ / سنة ١٩٨٢ م .

٩ ــ دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين ــ لمحمد بن علان الصديق المكى ــ طبع دار الفكر . بيروت .

١٠ ــ رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين ــ لأبى زكريا النووى. نشر دار الكتاب الإسلامى بالقاهرة .

١١ — زاد المعاد فى هدى خير العباد — لابن قيم الجوزية — طبع مؤسسة الرسالة . ببيروت سنة ١٤٠٢ هـ / سنة ١٩٨٢ م .

١٢ — سيرة الأمين المأمون (السيرة الحلبية) لابن برهان الدين الحلبى. المطبعة الأزهرية بمصر سنة ١٣٥١ هـ / سنة ١٩٣٢ م .

١٣ — السيرة النبوية — لابن هشام — طبع دار التوفيقية بالحسين بالقاهرة .

١٤ — السيرة النبوية والآثار المحمدية — لزينى دحلان — المطبعة الأزهرية بمصر سنة ١٣٥١ هـ / سنة ١٩٣٢ م .

١٥ — السيرة النبوية — لأبى الحسن الندوى — طبع دار الشروق بجدة بالسعودية سنة ١٤٠١ هـ / سنة ١٩٨١ م .

١٦ — السيرة النبوية ونشأة الدولة الإسلامية — للدكتور محمد الطيب النجار — (بالاشتراك) مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة سنة ١٩٧٣ م .

١٧ — سيكلوجية الطفولة والمراهقة — للدكتور مصطفى فهمى — ط ٣ بدار مصر للطباعة بالقاهرة سنة ١٣٧٧ هـ / سنة ١٩٥٧ م .

١٨ — صحيح البخارى — لأبى عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى — مطبعة الشعب بالقاهرة سنة ١٣٧٩ هـ .

١٩ — الطبقات الكبرى — لابن سعد — طبع دار التحرير بالقاهرة .

٢٠ — عيون الأثر فى فنون المغازى والشمائل والسير — لابن سيد الناس طبع دار الحضارة ببيروت ، ومكتبة القدسى للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة سنة ١٤٠٦ هـ / سنة ١٩٨٦ م .

٢١ — فقه السيرة — للدكتور محمد سعيد رمضان — ط ٧ بدمشق سنة ١٣٩٧ هـ / سنة ١٩٧٧ م .

٢٢ ــ القاموس المحيط ــ للفيروز أبادى ــ طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة سنة ١٩٧٧ م .

٢٣ ــ الكامل فى التاريخ ــ لابن الأثير الجزرى ــ ط ١ بالمطبعة الأزهرية بالقاهرة سنة ١٣٠١ هـ / سنة ١٨٨٣ م .

٢٤ ــ لسان العرب ــ لجمال الدين بن منظور ــ طبع دار المعارف بمصر .

٢٥ ــ لمحات من الثقافة الإسلامية ــ لعمر عودة الخطيب ــ طبع مؤسسة الرسالة ببيروت سنة ١٤٠١ هـ / سنة ١٩٨١ م .

٢٦ ــ المصباح المنير ــ لأبى العباس الفيومى المقرىء .

٢٧ ــ نهج البلاغة ــ للإمام على بن أبى طالب ــ جمع الشريف الرضى ــ شرح الإمام محمد عبده . ط٣ بالمطبعة العمومية بمصر سنة ١٣٢١هـ .

٢٨ ــ هداية الحيارى فى أجوبة اليهود والنصارى ــ لابن قيم الجوزية . مطبعة البيان التجارية بدبى .